

دير القديس أنبا مقار
برية شيهيت

التوبة

للأب متى المسكين

كتاب: التوبة
المؤلف: الأب متى المسكين.
الطبعة الأولى: ١٩٧٩
الطبعات اللاحقة: ١٩٧٢-٢٠١٣
الطبعة العاشرة: ٢٠١٥.
مطبعة دير القديس أنبا مقار - وادي النطرون.
ص.ب. ٢٧٨٠ القاهرة.
الناشر: دار مجلة مرقس ص.ب ٣١ شبرا
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٣٩٣١ / ٨٣
رقم الإيداع الدولي: 7-448-000-977-ISBN
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر.

التوبة



(موسم التائبين)

إن كانت البشرية قد سعدت بعصور الإيمان الأولى وانتعشت بالشهادة كختم للإيمان، فلا يزال ينتظرها عصر للتوبة سيكون من أزهى عصورها الروحية ولا يقل في إسعاده وإزهاره عن العصور الأولى، إن هي مارسته عن صحة. لأن التوبة هي نصرة ثانية للإيمان، وهي مجد ذاتها شهادة جديدة. فالعودة إلى الإيمان الأول شيء يكاد يكون ألد من بدء الدخول فيه. أنظر إلى فرح الأرملة بالفلس الضائع؟ أنظر إلى فرحة الراعي بالخروف الضال أكثر من التسعة والتسعين الرابضين في الحظيرة؟ هكذا يعلمنا الرب أن لذة رجوع التائب إلى حضن المسيح تعادل في قوتها وكرامتها عنده وعندنا حظيرة بأكملها، أي كنيسة.

وهكذا شاء الله— تبارك اسمه— أن يجعل للتوبة كرامة مضاعفة وإسعاداً ولذة وفرحاً حتى يشجع الراعي وحتى لا ييأس الإنسان الخاطئ أو ينجل من المجيء إلى حضن المسيح! وحتى يثبت فخر الصليب عوض عار الخنطية ويتمجد الإله الوديع الذي هو على استعداد أن يبرر الفاجر. لذلك يقول إن السماء كلها تفرح بتوبته وتهلل بتبريره، فكان التوبة أفخر أعمال البشرية، وهذا حق لأن التائب إنسان قد استجاب لقدرة الله على الغفران والتبرير، فربح بفعل ندامته ثمرة الصليب وتقدس الله!! أنظر كيف يستطيع التائب بحزن توبته أن يُفرح السماء كلها وقلب الله؟

لذلك لما تحقّق القديسون من كرامة التوبة والندامة التي هي أصلاً للخُطاة والزناة والمتوانين، اغتصبوا لأنفسهم وأخضعوا ذواتهم لأفعال التوبة الصارمة كخطاة، كمتوانين، بمحذق ومهارة فائقة حتى ظن الناس أن التوبة هي عمل القديسين والندامة من فعل الأبرار!

أما نحن الأشقياء فنظن أن برّنا يقدمنا إلى الله وأن صلاحنا وتقوانا وعلمنا وخدمتنا وغيرتنا تؤهلنا للشركة مع السمايين، غير عالمين أن «كل شيء عريان ومكشوف لعيني ذلك الذي معه أمرنا» (عب ٤ : ١٣)، وأنه ليس فينا شيء صالح نتقرب به «ليس من يعمل صلاحاً، ليس ولا واحد!!» (رو ٣ : ١٢) و«أعمالنا كلها كخرقة دنسة» (راجع حز ٣٦ : ١٦)

آه لو علمنا أن المسيح جاء «ليبرر الفاجر» (رو ٤ : ٥)، ولكي يدعو «التي ليست محبوبة محبوبة!!» (رو ٩ : ٢٥). لوتيقنا ذلك، لجحدنا في الحال كل بر لنا وكل صلاح أو تقوى كاذبة وكل المظاهر المصطنعة ولتقدّمنا إليه في الحال كفضّجار لا نستكثر خطيتنا على دمه ولا نستثقل دنس أنفسنا على محبته.

ليس للإنسان أن يبرر الفاجر لأنه لا يستطيع. هذا فعل إلهي وقدرة فائقة لا يعقلها الإنسان، إنه غنى السءاء الذي انسكب مع دم المسيح في قلوبنا، إنه غنى عطاء وسخاءٍ كلي، إنه لطف الله الممزوج بعطف جارف ومجبة مغلوبة من تخننها لم تستطع أن تشفق على نفسها يوماً فذبجت ذاتها على الصليب من أجل مذلة الخطاة.

تبرير الفاجر سر إلهي من أسرار التدبير الغزيرة العمق في مضمون الخلاص، حتى إنه يكفي للإنسان أن يؤمن فقط بأن الله قادر أن يبرر الفاجر فيحسب له إيمانه هذا برّاً بمجد ذاته. فما بالك لو تقدم الإنسان إلى الله، ففاجر مؤمن أنه يتبرر بفعل

قدرة الله على التبرير والتقديس، فإنه في الحال يدخل إلى عمق سر الخلاص غير المدرك.

المسيح يسوع جاء إلى العالم ليخلص الخطاة!!

الخطيء، نعم الخطيء!!
الذي هو كمية من النجاسة معجونة بشهوات وشروور وغرور وخبرات مؤلمة في الفجور.

الخطيء الذي هو رذالة عند الناس وعند نفسه، هو هو سبب مجيء المسيح إلى العالم!!

الخطيء الذي يحس في نفسه مجرمان كلي من كل ما هو مقدس وظاهر وجليل بسبب الخطية.

الخطيء الذي يرى نفسه في ظلام وقتام منفصلاً عن رجاء الخلاص ونور الحياة وشركة القديسين. هو هو نفسه صديق المسيح المدعو لحفل عشاءه، الذي أرسل يطلبه من وراء السياجات و يطلبه شريكاً لعرسه وورثاً معه لله؛ وقد وعد أن لا يذكر له خطية واحدة مما فعل بل أن ينساها كقيمة صيف يتلعبها وهج الشمس. أليس من أجله صلب نفسه واحتمل الذل والهوان؟!

إن قدرة المسيح الفائقة كإله يفدي ويحب حتى الموت، لا يمكن أن تُدرك ولا أن تُختبر إلا في شخص الخطيء المطروح على الأرض منبذاً من كل الناس!!
بدون الخطيء لا نفهم محبة المسيح ولا يُقاس عمقها ولا يكون لها فعل يكشف تفوقها الإلهي!!

المحبة الإلهية تظهر جليلاً في عين الإنسان جداً حينما يتعرف عليها وهي متنازلة إليه، بينما هو يكون ساقطاً في حالته المزرية.

من أجل الخاطيء انكشفت أسرار حب الله للإنسان وانفتح علينا غنى المسيح،
الغنى الموهوب مجاناً بدون ذهب ولا فضة .

يا لعظمة فقر الخاطيء، فققر الخاطيء الشديد هو وحده الذي يستنزف غنى
المسيح في ثقة كثقة الطفل الجائع حينما يستنزف اللبن من ثدي أمه!!
المسيح لا يُغني غنياً، ولا يُشبع شعباناً، ولا يبرر باراً، ولا يفدي مقتدرأً، ولا
يعلم عالماً، ولا يطلب موجوداً!!

غنى المسيح للفقراء والمساكين والمطرودين والمحترقين المدّئين عند أنفسهم،
ودسمه للجياح وبره للخطاة ويمينه للساقطين وعلمه للأطفال وللمتصاغرین عند
أنفسهم!!

فن كان فقيراً أو جائعاً أو خاطئاً أو ساقطاً أو جاهلاً فهو ضيف المسيح!!

المسيح نزل من مجد مُلكه يطلب الذين في الحضيض، الذين بلغوا حالة مذلة
وهلاك وظلام مزري، الذين فقدوا الأمل والرجاء في أنفسهم، لأن في هؤلاء يظهر
فعل قدرته واقتدار لاهوته، حينما تنبري لهم محبته المذبوحة لتقيمهم من الطين
والمزبلة وترش بالدم المقدس وتغسل كل عضو تنجس . وفي مثل هؤلاء يتعظم
صلاح الله إذ يجد فيهم مجال ترقق وشفقة وحنان . وفي نفوس هؤلاء المزدري بهم
والمنبوذین يرتاح اتضاعه إذ يجد في التنازل إليهم عملاً لوداعته .

آه لو علم الخطاة أنهم عمل الله ومسرة قلبه «نحن عمله» (أف ٢ : ١٠)، لو
تأكد الخاطيء أن مكانته عند الله هي المكانة الأولى في اهتمامات القدير وتديره
منذ الأزل وأن بال الله ظل مشغولاً بعودته كل الدهور وأن السماء كلها تترقب
رجوعه، لما خجل من نفسه أو احتقر قدرته أو أجّل عودته!!

لو علم الخاطيء أن كل ذنوبه مع تعدياته وضعفاته هي موضع إشفاق الله،

ومحل عفو وسماح، وأنها مهما تعاظمت وتفاقت فلا يمكن أن تصدّ قلبه أو تطفىء
رحمته أو تعطل حبه ولا إلى لحظة واحدة!!

آه لو علم الخاطيء ذلك، لما تمسك بخطيته ورضي بالظلام والتمس البعد عن
الله كحاجز يغطي خجله عن رؤية وجه الله الذي يتودد إليه ويناديه!!



«هلم نتحاجج، يقول الرب: إن كانت خطاياكم كالقرمز تبيض
كالثلج. إن كانت حمراء كالوددي تصير كالصوف»

(إشعيا ١: ١٨)

هذا هو الله المتنازل إلينا دائماً؛ الذي لما علم أن الخطية تُضعف قلب الخاطيء
وتدخله في حالة اختباء وحياء ميمت لتصدده عن المجيء إليه حتى لا يجيأ، أخذ

ينادي الخاطيء و يلخّ في ندائه و يدعو للمحاجاة والمناظرة!!

الخطائيء يظن أن الخطية تمنعه عن طلب الله، مع أنه بسبب هذه الخطية نزل المسيح يطلب الإنسان! ألم يأت الله إلى جسد الإنسان ليشفي المرض الذي فيه و يكفّر عن الخطية التي ملكت عليه وليقيمه من لعنة الموت؟ لم تعد الخطية قادرة أن تفصل الخاطيء عن الله بعد أن أرسل ابنه و دفع الثمن كل الثمن على الصليب، ولكن هو خوف الخاطيء و حياؤه و وهمه الكاذب الذي يخفي جنب المسيح المجروح الذي فيه يمكن أن يتطهّر العالم كله عدة مرات!!

الخطية لم يعد لها حق وجود أو سُكنى في طبيعتنا الجديدة، إنها أصبحت كبقعة على ثوب، تُرفع في الحال في أقل من طرفة عين حينما يتوب الخاطيء و يطلب وجه الله.

ليس على الخاطيء أن يتلفت ليلتمس قوة من ذاته أو واسطة غير دم المسيح ليدخل بها إلى الله ليجد الفداء والمغفرة، لثلا يهين حب الله ورحمته الفائقة و يعيب قدرته ولطفه وحنانه. ولكن له في كل قديسي الكنيسة وتائبها عوناً في قدومه!! ونحن قد رأينا وسمعنا ونشهد أن عظمة مغفرة الله و كلية صفحه وقدرة تقديسه للخاطيء لا تبلغ منتهى قوتها وعظمتها إلا عندما يبلغ التائب أقصى ضعفه.

يوجد خاطيء مزيف يتكلم عن نفسه أنه الخاطيء الكبير و يتحدث عن خطاياها التي بلا عدد، ولكنه في نفسه لا يراها حقيقة وهي لا تسبب له حزناً أو وخبزاً في الضمير. ليس لمثل هذا توبة وإن كان له ألف عمل وألف صلاة كل يوم... فالمسيح طبيب ماهر يميز بين المريض ومدّعي المرض.

المسيح لم يجيء بماء فقط ليغسل وسخ الجسد، بل بماء ودم ليغسل أولاً جروح الخطية الدامية التي مزقت قلب الإنسان وضميره، ثم يده بمجرعات طاهرة من دمه

المحيي ليفيق من إغماء الموت و يقوم و يحيا .

و حينما وصف إشعياء النبي خطايانا باللون القرمزي (أي الأحمر) كان في الواقع يشير إلى نزييف الخطية التي صبغت حياة الإنسان بصبغة الموت !! والنزييف دائماً يوقع الإنسان في الإحساس باليأس والخطر كمطعون في القلب أو كقاتل تلطخت يده بالدم؛ فأصحاب مثل هذه الخطايا ذوو الضمائر النازقة المثقلة المغمومة اليائسة هم مدعوو إشعياء إلى لجة غفران الله ورحمته . هؤلاء هم الذين من أجلهم نزل المسيح من عند الآب يطلبهم على رابية الجلجثة... أنظره وقد رفع يديه على الصليب ليكشف سعة حضنه يطلب المفقودين ويرفع اليأس من قلوب اليائسين !!

المسيح جاء ليطلب الخطاة الحقيقيين الرازين تحت وخز الضمير واليأس، لا يلتفت إلى الكاذبين مدّعي التوبة الذين يدينون أنفسهم أمام الناس ليزدادوا شرفاً بإتضاعهم ولتتمجد سيرتهم كتائبين وهم ليسوا تائبين .

المسيح جاء ليدعو المأسورين بالإطلاق، يجري وراءهم في مكانن الظلام؛ فإن لم تكن قد أحسست بأسر الخطية واستشعرت ظلمتها واستيقظت لرعبتها الخائفة، فكيف تصرخ من الأعماق؟ وإذا لم تصرخ صراخ الخطر، فكيف يسمع المنقذ صوتك وأين يعرف مكانك؟

المسيح جاء ليعطي النظر للعميان، فإذا كنت لم تكتشف عمى قلبك ولم تحس بالحرمان من النور الإلهي، تحاول أن تفتح عين غيرك وأنت لا تبصر، فكيف يهيك الرؤيا وأين يضع لك النور؟

جوهر التوبة شعور بالخطية، صراخ من ألم الجريمة، تحقق من انعدام النور.





«الإرادة حاضرة عندي وأما أن أفعل الحسنى فليست أجده» (رومية ٧:

١٨)

هذه عقبة كؤود حجزت الكثيرين عن الدخول إلى التوبة. يقف الخاطيء على باب التوبة يستجمع إرادته فلا يجد رصيماً يكتفي حتى للبدء في أي عمل صالح، ثم يقارن نفسه بالذين فازوا بالرحمة والغفران فلا يضبط قوة. تخونه الشجاعة ويفطس في لجة اليأس والقنوط... ويرى التوبة وكأنها عمل شاق!!

هذه خدعة العدو، فمن قال أن التوبة استجماع إرادة أو فعل شجاعة أو مقدرة

ونشاط؟

أليست التوبة هي السقوط في يد الله، والإرتواء تحت قدميه في إعياء الإرادة، بقلب مجروح يدمي بالندم وأعضاء هسمتها الخطية لا قوة لها على القيام إلا برحمة الله؟!

التائب وصفه المسيح بإنسان غريب الجنس وقع بين اللصوص في بلد غريب، فعثره وسلبوه وفضحوه وجرحوه وتركوه ميتاً أكثر منه حي!! التائب كإنسان عراه الشيطان من ثوب كرامته، فتعرت إرادته وتدنست أعضاؤه. ثم سلب كنهه، وكز

الإنسان رزانة عقله ونور بصيرته وحركة ضميره، فانفضحت جبلته وانكشفت سقطته وانحطت مشيئته. وأخيراً جرحه بالشهوة جرحاً بليغاً يستنزف حياته سرّياً، ثم تركه في النهاية كميت لا يستطيع أن يحيا!!
هكذا لم يجد السامري الصالح فرصة لسؤال أو متسعاً لملامة بل تلقفه على يديه حالاً!

والسامري الصالح كان في المثل (لو ١٠: ٣٠-٣٧) هو المسيح وقد صحَّ ظننا تماماً فلم يؤنِّبه بكلمة ولا طالبه بمحركة، بل أتى إليه بنفسه حيث سقط وانحنى عليه بحبه، وغسل وضمّد جرحه بجرحه، وأوقف تزييفه بنزيفه، وصب عليه من زيت حنانه وخر حياته، وحمله على ذراعي رحمة وأركبه إلى فندق كنيسته وأوصى ملائكته بخدمته، وصرف عليه من نعمته حتى قام وتعافى!

هذا هو التائب، إنسان بائس سقط على الطريق بعد أن اغتاله ظلم الإنسان وحقد الشيطان فما عاد يقوى على شيء؛ فلما نزل قوته أصبح له عند الصالح مكان، مكان في القلب ومكان بين ذراعيه وعلى دابته وفي ملكوته!!



«الأجنَّة دنت إلى المولد ولا قوة على الولادة»

(إشعيا ٣٧ : ٣)

هذه أيضاً حالة الخاطيء حينما يقف على باب التوبة وهو يتمخض برجاء الخلاص وتجديد الحياة، ولكن إذ ينظر إلى الماضي الذي دنَّسه يبكي، وإذ يتطلع إلى المستقبل الذي يشتهيه يغشى عليه؛ لأنه يجد أن الضعف تغلغل كيانه وما عاد يملك القدرة أن يستخلص نفسه من الوحل والضعف يحيط به، وضعف يقود إلى ضعف... وكأنا الخاطيء كمرض الذبول الذي يصيب النباتات فلا يتركها إلا وكآبة الموت تلتفُّها من كل جانب؛ هكذا الخاطيء تماماً تنخر في كيان الإنسان، تريد أن تطرد روح الحياة...

الإنسان ليس فقط ضعُف بالخطية بل مات بها فعلاً. والمسيح لما أتانا جاء وهو يعلم أننا «أموات بالذنوب والخطايا» (أف ٢ : ١). والميت بالخطية إنسان حُبل بالإثم فأصابه بعد زمن مخاض الموت. وميلاد الخطية دينونة موت محقق يستشعره الخاطيء في أعماقه.

المسيح اختطف الخطية من بطن الإنسان ففدانا من موت محقق، وعوض الخطية دخل المسيح أعماقنا وتصور في أحشائنا فتجددت جيلتنا، فبعد أن ملك الموت علينا ملكت الحياة فينا ومخاض الموت انقلب فصار بهجة حياة ونجاة. لقد جاز المسيح الموت لكي ينجينا من موت مثل هذا، وهولا يزال حياً!!

حقاً إنه من غير المعقول أبداً أن يموت إنسان صالح عوض إنسان خاطيء!!

ولكن الله ليس كالإنسان، فكل ما هو غير معقول وكل ما هو مستحيل صنعه الله لما «بيَّن محبته لنا لأنه ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا» (رو ٥ : ٨).

إذن، فخطية الخاطيء وعاره الشديد بسبب الخطية الرابضة في أحشائه ورائحة الموت التي تسري في كيانه بسبب آثام حياته السالفة، هذه كلها قاسها الله بحبه العميق ووجد لها حلاً بنزول ابنه إلى أحشاء البتول ليثمر من بطنها ثمرة حياة عوض ثمرة الخطية التي حبل بها الإنسان؛ وعوض ضعف مخاض الموت الذي تكلم عنه إشعياء حتى لم يعد الإنسان يضبط قوة، ظلل الله الحشا البتولي بقوة العلي فولد ابن الإنسان، ويا له من ميلاد، وُلد إلهاً!!

الخطاطيء مدعو أن يثق في عمل المسيح الذي أكمله بميلاده وبصليبه عن خطية الإنسان، وعن ضعفه الشديد، وعن موته. وغير مطلوب منه (أي من الخطاطيء) إلا أن يمد يده كالمرأة نازفة الدم (لوقا ٨: ٤٤) ويلمس ثوب المخلص وحينئذ سوف يرى كيف تخرج قوة من الرب لتسكن فيه! فيقف النزف، وينقلب الضعف إلى قوة، والموت يهرب أمام الحياة!!

ألا تمد يدك لتأخذ نصيبك من القوة حتى لا تكون بعد ضعيفاً ولا ميتاً... ليتك تذكر هذا حينما تهتف مع خورس جمعة الآلام: «الرب قوتي ونشيدتي وقد صار لي خلاصاً» (خر ١٥: ٢، مز ١١٨: ١٤)

إن أردت أن تعرف كيف تسري قوة الله فيك فاذا ذكر أريحاً كيف سقطت أسوارها لا بسيف ولا بحرب بل بهتاف النصره بإسم الرب، واذكر البحر الأحمر كيف انشق بعصى التوكل على الله، واذكر الأردن كيف انفلق تحت أرجل الكهنة.

إن قوة الرب هي هي دائماً للإنسان الضعيف المتضايق المتحير المظلوم.





«أما عرفت، أم لم تسمع؟ إله الدهر الرب خالق أطراف الأرض لا يكل ولا يعيا. يعطي المعبي قدرة ولعديم القوة يُكثر شدة. الغلمان يعيون ويتعبون والفتيان يتعثرون تعثراً، وأما منتظرو الرب فيجدون قوة. يرفعون أجنحة كالنسور، يركضون ولا يتعبون، يمشون ولا يعيون.»

(إش ٤٠ : ٢٨ - ٣١)

«لأنك طرحني في العمق في قلب البحار فأحاط بي نهر، جازت فوقي جميع تياراتك ولججك. فقلت قد طردت من أمام عينيك... قد اكتنفتني مياه إلى النفس، أحاط بي غمر، التفت عشب البحر برأسي، نزلت إلى أسافل الجبال، مغاليق الأرض عليّ إلى الأبد... حين أعيت في نفسي ذكرت الرب فجاءت إليك صلاتي...»

(يونان ٢ : ٣ - ٦)

حالة إنسان يتمزق بأفكار الندم على خطاياها، ولكن في شك من رحمة الله، مطروح كغريق يجرفه نهر من التهيوّات والتصورات اليائسة، وكلما حاول أن يطفو ليستنفس الحياة تضغط عليه لجاج ثقيلة من الظلمة العقلية فتطرحة بعيداً عن رجائه، فتغرق نفسه أكثر في هموم لا تنتهي، وكأنما اليأس بدا عليه كغمر محيط، تنقض عليه

الأفكار المحزنة المتشائمة من كل جانب، والشك والضيق والحزن ملتبس حول عقله كعمشيب البحر حينما يلتفت حول عنق غريق ويسد عليه أسباب النجاة حتى لا يكون خلاص.

هذه حرب مُرّة يجوزها الخاطيء الرازح تحت هموم آثامه الكثيرة حينما يفكر في الخلاص، فتنبيري له شياطين الظلام للإنتقام، فلا ينفع الخاطيء حدة الفكر ولا يسعفه محاجاة العقل ولا قراءة الكتب ولا مشورة الحكماء. فالجرب حرب عقلية والعقل في محنة سببي. إذن، فلا مناص إلا أن يأتي العون من العلاء، من فوق العقل، من هناك من عند الله، الساكن في العلاء: «حين أعيت في نفسي ذكرت الرب!!» (يونان ٢: ٧).

إلى هؤلاء السائبين المجرّبين نقدم آية النجاة التي ستكون لهم كمرساة مؤتمنة تجذب النفس من وهدة الهلاك لتدخل بها إلى عالم النور والرجاء والسلام في حضن التوبة المريحة:

«كل خطية وتجديف يُغفر للناس»!! (مت ١٢: ٣١)

مبارك الإله الحي الذي سبق وعرف وقاس كل تجربة سنجوز فيها وكل حرب تُحاك علينا، وقد آمال بأذنه دائماً إلى صوت الصارخين ليتلقى أول إشارة استغاثة: «فجاءت إليك صلاتي إلى هيكل قدسك» (يونان ٢: ٧).

مَنْ في الآلهة مثل إلهنا، قريب من صلاتنا، قريب من دعائنا.
«الله لنا ملجأ وقوة. في الضيقات وُجد شديداً» (مز ٤٦: ١).

•••

«دعوت من ضيق الرب فاستجابني...
صرخت من جوف الهاوية فسمعت صوتي...
قلت قد طردت من أمام عينيك ولكنني أعود أنظر إلى هيكل قدسك...
أصعدت من الوهدة حياقي أيها الرب إلهي...
أنا بصوت الحمد أذبح لك وأوفي بما نذرته...
للرب الخلاص!»

(يونان ٢: ٢، ٤، ٩)

حينما يعيّرنا العدو أننا صرنا هالكين بسبب تجاديفنا، نذكر قول الرب أنه
«جاء ليطلب ويخلص ما قد هلك»...

وحيثما يقول أننا أصبحنا خطاة ميثوساً من خلاصنا بسبب سُكنى الخطية في
أذهاننا وأجسامنا، نقول أن المسيح مات من أجل الخطاة و«دم يسوع المسيح ابنه
يطهرنا من كل خطية» (١ يوحنا ١: ٧).

وحيثما يبكتنا بأننا تلوثنا تماماً وصرنا أئمة فاجرين عتقاء في الشر، نتمسك
بالوعد: «لأن المسيح إذ كنا بعدُ ضعفاء مات في الوقت المعين لأجل الفُجَّار» (رو
٦: ٥).

إن منطق الشيطان دائماً أبداً معكوس لأنه إن كان منطق اليأس عند الشيطان
هو أنه بسبب كوننا خطاة فُجَّاراً نصير بالضرورة هالكين، فنطق الرجاء عند المسيح
هو أنه بسبب كوننا هالكين من جراء كل خطية وكل فجور نخلص بدم المسيح!!

من هنا تنبع الثقة في المسيح لدى الخاطيء التائب بمنطق لا يُغلب ولا يُهزم ولا
يتزعزع.

ولكن الثقة في قدرة المسيح على الخلاص من أشد الخطايا تسلطاً ومن أعنف حالات اليأس، ينبغي أن تكون ثقة كاملة خالصة شديدة في شخصه هو؛ بدون تفكير ولا محاورة مع الشيطان، وبدون النظر إلى ضعف الإرادة والجسد، وبدون حساب للخسارة أو التكلفة. يلزم أن تكون الثقة في المسيح كاملة كالمسيح، قوية كالمسيح، واثقة كالمسيح.

إذا كان المسيح جاء ليخلصنا، إذن فلا بد أن يخلصنا، ويستحيل أن لا يخلصنا، لأن خلاصنا هو عمل المسيح، ويستحيل أن يكون المسيح فينا بلا عمل. فقانون إيماننا يتحتم أن يشمل أننا نخلص ونصير للمسيح تائبين لأننا نؤمن أن المسيح جاء ليخلص الخطاة. ونحن إذ نعترف أننا أول الخطاة فنحن سنكون حتماً باكورة التائبين المفديين. وها نحن نتوب إليه كل يوم لا كأبرار أقوياء، بل كفضجار وضعفاء!!

هو قد جاء ليطلب ما قد هلك، وهوذا نحن كهالكين نطلبه، وكمائتين نمسك بحياته.



«صرت مثل إناء متلف ... الخوف محيط بي»

(مزمو ر ٣١ : ١٣).

«قد ذبت، لا أحيا إلى الأبد» (أيوب ٧ : ١٦)

الخطية تحل الإرادة وتتلّف الشخصية وتفكك أوصال النفس . فلا يعود الإنسان قادراً أن يضبط قوة أمام سطوة الشهوة وإغراء الخطية . وكما يسقط الفأر الصغير في محالب القط بمجرد أن تقع عينه عليه ، كذلك تنحل قدرة الخاطيء أمام أقل إشارة للشهوة . وكما يجمد قلب الغزال أمام رؤية الأسد فيخصر يعباً بين رجلية ، هكذا يستسلم الخاطيء للفكر الشرير . وكلما يعزم أن يقاوم يسقط وإذا أقسم أن لا يعود ، يعود . فلا يعود الإنسان يثق في نفسه ، وتصير قدرته على الصلاح محتقرة في عينيه مكسورة كأناء متلف ، وتصغر آماله في الله وتذوب كل إمكانياته في سبيل ذلك ، ويصبح وكأنه عصابة تذرّها الريح ، أو كإنسان بلا رجاء في العالم .

هكذا يتمكن العدو أحياناً من النفس فيربطها بالخوف ، الخوف من الخطية نفسها ، فيسوقها كيفما يشاء وأبنا يشاء ، من خطية إلى خطية ، ولا قدرة لها على معارضته ، فتتبعه مسلوّبة الإرادة مهدورة الكرامة مجروحة الشعور محزونة الضمير ، لا قدرة لها على القيام ولا مسرة لها في السقوط !

إيه أيتها النفس المسكينّة ، ألا تذكرين مجد خلقتك الأولى ومجد خالقك ؟ فأنت على صورته الخصوصية خلقتك في الشجاعة والحق والقداسة والبر .

ولكن هل يعلم الله حقاً ما يصير إليه الخاطيء من وجع مثل هذا ، وغم بمقدار هذا ؟

للإجابة على هذا السؤال ، إسمعه يقول : «أما الروح فنشيط وأما الجسد فضعيف» (مت ٢٦ : ٤١) ، «يا امرأة... أما دانك أحد؟ ... ولا أنا أدينك . إذهي

ولا تخطئي أيضاً!!» (يو ٨: ١١)، «أتريد أن تبرأ؟» (يو ٥: ٦)

إذن فضعفنا وذلنا كان محسوباً دائماً عنده منذ الأزل، وهو أتى أخيراً بنفسه ووضع ذاته في خدمة الضعفاء والخطاة المهزومين، وأقام روحه القدوس حارساً على نفس الإنسان يعمل ليل نهار ليطرده الرعدة وروح الخوف من قلوب الخطاة ويحوّلها هيكلًا ومكاناً لسكناه. والشخصية التي فككتها الخطية يجمعها الروح ثانية. والنفس التي أذلها الشيطان وهزأ بسلطانها وأذاب إرادتها تلمسها نعمة المسيح فتقوم وتتجدد وتتشدد.

نظرة واحدة للمسيح جعلت بطرس يترك ضعفه وانهزامه أمام الخدم والجواري، ويمسك نفسه ويسترد إرادته التي تكسرت كإناء متلف حتى ذابت نفسه أمام التهديد. ولكن من عيني المسيح استمد بطرس قوة توبة استعاد بها كيانه.

إن المسيح لا يزال يجول بين الخطاة، يشفي كل ضعف وكل سقم للنفس...
والروح القدس مستعد دائماً أن يلبس الخائفين قوة من الأعالي...
والنعمة قائمة كل يوم تسند الأيادي المرتعشة والركب الخلعة...

وعبة المسيح حيناً تشتعل في القلب التائب تحوله من خائف إلى شهيد!!
وكم قلبت التوبة الضعف والانهزام والاستسلام إلى شهادة وكراسة ومناداة
بحق الإنجيل.

وذكري مخاوف النفس الأولى ويأسها وانكسارها تصبح شهادة على رحمة
المسيح...

والرغبة من حركة الخطية والشهوة تنحل كالدخان، والإذعان الدليل لدعوة

عشراء السوء يتحول إلى نصح ومصادرة.

وهكذا يخلع الخاطيء صورة الفاسد ليلبس الجديد بيد المسيح، والضعيف والجبان والخائف والمكسور والذي لا يضبط قوة يسمع الوعد من فم القدير: «ها أنذا قد جعلتك اليوم مدينة حصينة وعمود حديد وأسوار نحاس... لا يقف إنسان في وجهك كل أيام حياتك... لا أهملك ولا أتركك تشدد وتشجع» (إز ١: ١٨، ١٨، يش ١: ٦، ٥).



«ولكنني أرى ناموساً آخر في أعضائي (ناموس الخطية والموت) يجارب ناموس ذهني ويسبيني إلى ناموس الخطية الكائن في أعضائي. وبني أنا الإنسان الشقي»

(رومية ٧: ٢٣ و٢٤)

« كما يعود الكلب إلى قيئه أو الخنزيرة المغتسلة الراجعة إلى مراغة الحمأة؛ متى أستيقظ أعود أطلبها بعد»

(أمثال ٢٦: ١١؛ ٢ بط ٢: ٢٢؛ أمثال ٢٣: ٣٥)

قلق وهمٌ كثير يصيب النفس لما تكتشف سطوة الخطية وتسلطها على الأعضاء، في إصرار وعناد وتبجح وقبح كثير، ورنه حزن ممزوجة بيأس ضاغظ تسري في النفس عندما تتبين بعد المحاولات تلو المحاولات عدم جدوى العهود والوعود وأعمال التكفير والندم والدموع الكثيرة.

ولكن ما الحيلة؟ هذا قانون القداسة مطبوع بيد الله على قلب كل إنسان ينادي أعماق النفس بلا هواده: إنه لا راحة ولا استقرار إلا في الطهارة، ولا فرح ولا سلام إلا في الكف عن الخطية!! وأي انحراف عن هذا القانون ينشئ في الحال منازعة كبرى مع الضمير، ومعارضة مع الحياة نفسها، وخصومة مع الروح وتغرباً عن هدف الخليقة، وتيهاً في ظلمة الفكر، واختلالاً في ميزان الحكم على طبيعة الأشياء، وتبرماً بالحق، وبالتالي عداوة مع صاحب القانون.

ولكن يحدث أن يتسرع الإنسان في حماس جاهل فيبدأ بالمصادمة مع الخطية مصادمة مباشرة. ويا للحزن حينما يتكشف له في الحال مقدار عجزه ومقدار سطوة الخطية!! وإذ يفعل في حماس جنوني يقوم بتكرار المحاولة، وحينئذ يُصدم الصدمة الكبرى حينما يلمح الإنسان شبح الشيطان مجسماً وراء الخطية رابضاً في الأعضاء

التي صارت ملكاً له، متنسلاً بواسطتها على ملكات النفس وحركة الجسد تسلطاً عميقاً منظماً، خطَّ نخطوطه منذ زمان بعيد حتى أصبحت ذات أصول وذات ناموس!!

وأخيراً، وأخيراً جداً وبعد أن يستفرغ الإنسان كل جهده ويستعرض كل حيله وتفكيره، يقتنع أنه أسهل عليه أن يصرَّ الماء في منديل أو يجمع الريح في كفه أو يصعد السماء برجله من أن يضبط ناموس الخطية بإرادته أو يتسيطر على قوى الشر المتحركة في أعماق أعضائه!

هنا عمل المسيح... المسيح وحده، لأنه دان الخطية في الجسد!!



«لأن ناموس روح الحياة في المسيح يسوع أعتقني من ناموس الخطية والموت» (رومية ٨ : ٢).

ولكن قوة التوبة هي في المجاهدة المُصِرَّة لتملك روح الحياة في المسيح يسوع، ليعتق الجسد من ناموس الخطية بواسطة النعمة التي بها إذ نملكها يمكن أن نجاهد حتى الدم ضد الخطية، واثقين أننا بها سنكون أعظم من منتصرين «عالمٌ بمن آمنْتُ» (٢ تي ١ : ١٢).

ليس هدف التوبة أن نتبرر أمام الله بفعل الندامة والكبت الظاهري للخطية بأعمال تكفيرية وتعذيب الجسد، ولكن هدف التوبة التقديس الداخلي بروح المسيح «ليُبطل جسد الخطية» (رو ٦ : ٦)، والتحرر من الخطية ذاتها في أعماق الضمير فيتبدد سلطانها ويتلاشى الخوف منها، فتصير النعمة هادية لحركات الضمير، قامعة لإنفعالات الجسد، ضابطة ليلاد الأفكار، مرشدة للنسك، ممتزجة بالتشف، ملذذة للندامة.

ليس غفران الخطية هو كل عمل النعمة في الإنسان، ولا هو هدفنا النهائي من الإيمان بالمسيح؛ ولكن أن تُرفع الخطية من الأعضاء ويكف سلطانها ويتلاشى ناموسها من طبيعتنا، هذا هو غاية التوبة وغاية الإيمان، وهذا من سلطان النعمة العظيم.

المسيح انجرح جنبه على الصليب ليخرج منه ماء ودم لكل من يتوب ويُقبل إليه، الماء للغسل من دنس الخطية والدم لرفع سلطانها.

فبارك هو اليوم الذي انفتح فيه جنب المسيح على الصليب ليجد فيه الخاطيء بره وقداسته وفدائه.

توبوا « من له أذنان للسمع فليسمع »

— لقد مهد يوحنا المعمدان، بالتوبة، الطريق لمعرفة المسيح وظهوره!!

— بدون توبة عن الخطية، وندم على حياة الإستهتار، وعودة القلب إلى مخافة الله، يتعذر استعلان معرفة المسيح و ينحجب ظهوره الإلهي عن النفس! ... « وأنا لم أكن أعرفه لكن ليُظهِر لإسرائيل لذلك جئتُ أعمد بالماء... وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله» (يو ١ : ٣١ و٣٤).

— إذن، فكانت معمودية يوحنا بالماء للتوبة، ضرورة مطلقة حتى يُستعلن المسيح!

— ولا تزال التوبة في كل حين وحتى هذه الساعة هي الطريق الوحيد الذي يوصلنا إلى التعرف على شخصية المسيح. فن خلال ضغطة الحزن على الخطية والإحساس بالندم القاتل، نستكشف رحمة يسوع وقيمة دمه وقدرة لاهوته على الإقامة من الموت والهاوية!!

— إذا لم نقف على خطر الخطية العاملة فينا ونحس في أعماقنا بسر الإثم، لن نقف يوماً على قيمة الدم الإلهي، ولن نحس أبداً بسر الفداء!!

— وإن كنا لا نفحص ضمائرنا ونلومها وننازع أنفسنا عن قبائح حياتنا الداخلية وندينها ونكتشف في أخطائنا وشهواتنا وعبوبنا ونجاساتنا حقيقة أنفسنا،

فلن نشعر بأي حاجة إلى المسيح، ولا نجد ضرورة ملحة للتعرف عليه، و يظل لاهوته مجرد موضوع للإيمان يزداد و يتناقص بمقدار البرهان الفكري، أما الدم المسفوك على الصليب فيبدو وكأنه بلا داع أو كأنه لازمة من لوازم قصة الصليب وحسب!!

•••

ولكن يا لجلال الرب للقلب الثائب!! و يا لقوة الدم للضمير الذي يئن من ثقل الخطية!! حينما تبليغ النفس إلى حقيقة ذاتها بعد أن تكون قد واجهت خطيتها بشجاعة و صمود دون تهرب أو اعتذار أو عطف كاذب... فحينئذ لا ترى مفرأ من السقوط تحت خشبة الصليب!! ولا تعود ترى في يسوع موضوعاً فكرياً للإيمان بل حقيقة حياة من الموت، و خلاص من الهاوية.

«من آمن بي ولومات فسيحيا»!!... «من آمن واعتمد خلص»!!

سؤال: وماذا يحتاج الإنسان الخاطيء ليقبل الإيمان بالمسيح، فيقبل الحياة والخلاص؟؟

الجواب: لا شيء!! فقط لا يعاند الصوت الداخلي، ولا يقاوم الدعوة!!...
«الحق الحق أقول لكم إنه تأتي ساعة وهي الآن حين يسمع الأموات
(بالخطية) صوت ابن الله والسامعون يحيون»!! (يو: ٥ : ٢٥)

•••

بداية سيرة الخاطيء مع الله كبداية ميت في القبر...
ليس عليه واجبات، لأن ليس له حقوق في شيء! «ليس في الموت من يذكرك ولا في الجحيم من يعترف لك»...

إن الخاطيء الذي غرَّته الخطيئة وقتلته يبدو وكأنه بلا نفس، بلا قوة على العمل، بلا حركة في الروح، بلا أذن للسمع، من أجل هذا جاء ابن الله، كلمة الله الحية، وأرسل صوته بالإنجيل ليزرع بكلمته أذنًا جديدة في النفس الميتة لتسمع الإيمان وتعيه... وحين يسمع الخاطيء صوت ابن الله يحيا ويقوم من بين الأموات!!...!

•••

الخطيء إنسان في عرف الروح ميت... ولكن لا توجد خليقة مدللة لدى الله قط مثل هذا الميت المنتن بالخطيئة!!... «محب للعشارين والخطاة»!!...!

فكل خليقة في الوجود إن في السماء أو على الأرض عليها أن تتحرك وتجهد وتثابر لتحيا، إلا الخاطيء، فلا يطالب من الله أن يتحرك إلى شيء أو يجهد من أجل شيء أو يثابر على شيء إلا أن يقبل فقط صوت الله الخنون ولا يرفض دعوة حبه «والسامعون يحيون»!!...!

صوت الله قوة ليست محيية فقط بل وجاذبة أيضاً، تستطيع أن تجذب النفس من أعماق الموت والهاوية وتقيمها من قبر الشهوات وتفكها وتدفعها، هذه الأمور يستحيل على النفس أن تؤذيها من ذاتها، بل ويستحيل عليها حتى أن تشارك فيها ولا بشيء من الجهد، ولكنها مطالبة فقط أن لا ترفضها...

— «لا يقدر أحد أن يُقبل إليّ إن لم يجتذبه الآب.»

(يو ٦: ٤٤)

— «... ومن يُقبل إليّ لا أخرجه خارجاً» (يو ٦: ٣٧)

•••

وفي اللحظة التي يتقبل فيها الخاطيء صوت الله، تنزوع في نفسه الميتة أذن روحية
«يوقظ كل صباح، يوقظ لي أذناً لأسمع كالمتعلمين، السيد الرب فتح لي أذناً وأنا
لم أعاند، إلى الورا لم أرتد.»

(إش ٥٠ : ٤، ٥)

وحيثما تتفاعل الأذن الروحية مع هذا الصوت بنجاح، فالروح ينسكب في
النفس خالقاً قلباً جديداً روحياً للإنسان من صنع الله، يبدأ في الحال ينبض
بالإيمان والولاء للذي فدها من الموت وخلصه. وحينئذ يأخذ الإنسان قوة على
التحرك نحو الله والإجتهاد لإرضائه والمثابرة على حبه...

هنا تبدأ سيرة جديدة للخاطيء تجاه الله الذي دعاه، واجتذبه من موت الخطية
وفدها، وطهره من نجاساته وأحياه بدم يسوع المسيح وقوة قيامته من الأموات، هنا
يصبح الخاطيء مطالباً— بعد أن ذاق ذلة الموت وتذوق مجد الحياة— أن لا يعود يسير
بقدميه في طريق الموت! وأن يبغض الطرق الخادعة المؤدية إلى الهلاك!... و يبغض
الإثم!...

وبقدر ما طهره الله— بريسوع المسيح— من نجاسات الخطية القاتلة، أصبح
مطالباً أن يسعى في إثر القداسة للحياة مع الله بقوة الله «نظير القدس الذي دعاكم
كونوا أنتم أيضاً قديسين» (١ بط ١ : ١٥)

بل وأصبح من صميم سيرة الخاطيء المطهر بالدم الإلهي أن يُسرَّ ويفرح وبخبر
بفضل الذي دعاه من الظلمة إلى نوره العجيب. (١ بط ٢ : ٩)

فإن كانت بغضة الخطية القاتلة هي من صميم فعل الندامة والتوبة، فالفرح ببر
المسيح وفعل دمه الماحي للذنوب والخطايا هو نور التوبة وهجتها الذي يحفظ
الخاطيء من النظر إلى الورا ويؤمنه ضد رغبة الموت الوهمية...

وهكذا يصبح الخاطيء— بعد أن يحصل على قوة التوبة بفرح بَرّ المسيح— قادراً أن ينطلق باستمرار من تعقب الظلمة له ومخاوفها، ويواجه نور الحاضر ورجاء المستقبل «الذي أنقذنا من سلطان الظلمة ونقلنا إلى ملكوت ابن محبته» (كولو ١: ١٣)، و يصارع ضد شرور هذا الزمان بلا خوف، مستتراً في المسيح ومتشبيهاً بدعوته حسب إرادته وبقوة دمه «الذي بذل نفسه لأجل خطايانا لينقذنا من العالم الحاضر الشرير حسب إرادة الله وأبيننا» (غل ١: ٥).

•••

الخطيء يسعى بتوبته لميراث الملكوت، ولا يملك إلا قوة الدعوة التي حظي بها، كبرهان اختيار ونعمة، تحوي في داخلها سر الدم الإلهي القادر أن يغسل ويظهر ويقدس إلى التمام وحتى النهاية بدون نقص أو عجز أو ملل من جهة الله!!

•••

ولكن كل خطية يقترفها الإنسان بعد ذلك عن وعي وإرادة و يكررها بعدم مخافة وبلا ندم وتوبة، قادرة أن تصيب الأذن الروحية بالصمم والقلب الجديد بالتلف، فلا يعود صوت الله يُسمع بقوته المحيية المغذية، ولا يعود القلب ينبض بالإيمان الحي، ولا تعود النفس قادرة على التحرك أو الإجهاد أو المثابرة كما ينبغي، وحينئذ تدب في النفس شيخوخة روحية مبكرة تنذر بالخوف والخطر!! «وإن ارتد لا تُسرب به نفسي».

•••

كلمة الله لا تحيي مرة بل تحيي مرات ومرات لا تحصى وبلا عدد، وصوت الله قوة تقييم لا من الأموات فقط بل أيضاً من الهاوية، ولكن لا بد أن يتوب الإنسان

عنها باكياً نادماً في التراب حتى ولو كان ملكاً!! ولا بد أن يطرح نفسه تحت توبيخ
الكلمة وانتهازها مهما كان عظيماً، كمر يرض مدنف على الموت يسلم جسده لسلاح
طبيب جراح. فالخطية سرطان الروح إذا استوصلت مبكراً تنجو النفس، وإذا
استهين بها توغلت واستشرت وخربت، فهي لا تعيش إلا ليموت الإنسان! « فاذكر
من أين سقطت وتب واعمل الأعمال الأولى وإلا فإني آتاك عن قريب وأزحج
منارتك من مكانها إن لم تتب » (رؤ ٢ : ٥)



يُطلب من:

دار مجلة مرقس

القاهرة: ٢٨ شارع شبرا - تليفون ٢٥٧٧٠٦١٤

الإسكندرية: ٨ شارع جرير - محرم بك ت: ٤٩٥٢٧٤٠

أو من: مكتبة الدير

أو من خلال الموقع على الإنترنت:

www.stmacariusmonastery.org

